

المال مال الله.. يقلم الشهيد عبد القادر عوده



الخميس 8 ديسمبر 2022 10:17 ص

ماذا يملك البشر في هذا الكون؟

هذا الكون خلقه الله الذي خلق كل شيء وسخره لمنفعة البشر ، وسلطهم عليه بما وهبهم من عقول ، واستخلف البشر واستعمرهم في الأرض، ولكنه قيدهم بطاعته والاهتداء بهديه.

ولا شك أن البشر في تسلطهم على الكون ، واستغلال ما فيه من قوى، والانتفاع بما فيه من خيرات ، ويحتاجون في حفظ حياتهم والاحتفاظ بقوتهم و نشاطهم إلى طعام و دواء و لباس وفراش ومأوى ، كما يحتاجون إلى ما يستعينون به على استغلال الكون من أدوات وآلات وحيوانات.

و استغلال الكون بعد ذلك يقتضي البشر أن يسيطروا على بعض الأرض يستنبتون فيها الزرع أو يرعون ما فيها من حشائش أو يستغلون ما فيها من أشجار، أو يستخرجون ما فيها من معادن أو زيوت ، أو يقيمون عليها مساكنهم ومخازنهم ومناجرهم ومصانعهم وقراهم ومدنهم.

ثم إن عجز البشر في طفولتهم وشيخوختهم ومرضهم يدعوهم لأن يدخروا لأبنائهم ما يحييهم في طفولتهم ، وإلى أن يدخروا لأنفسهم ما يعينهم على شيخوختهم ومرضهم.

و قد تنمو الرغبة في ادخال القليل وتتحول إلى رغبة في ادخارا الكثير ، وهذا المدخر يتشكل أشكالا مختلفة بحسب ظروف كل شخص فيكون عقارا أو منقولا أو حيوانات أو معادن.

فهل يمتلك البشر كل هذا الذي يحتاجونه أو يجازونه أو يدخرونه ؟ ما حدود ملكيتهم؟ وهل هي ملكية تامة أو هي ملكية ناقصة؟ وهل هي ملكية مطلقة أم هي ملكية مقيدة ؟

المال لله و للبشر حق الانتفاع

ونستطيع في سهولة ويسر اذا رجعنا إلى ما لدينا من نصوص ورتبنا معلوماتنا ترتيبا منطقيا أن نصل إلى نتيجة واحدة هي أن المال كله لله وأن البشر لا يملكون منه إلا حق الانتفاع به.

فالله جل شأنه هو الذي خلق وما بينهما و ما بينهما من شيء "ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء " الأنعام:102,"هو الذي خلق لكم ما في السماوات والأرض جميعا " البقرة:29,"الله الذي خلق السماوات والأرض"ابراهيم :. 32

ومنطقنا البشري يقتضي أن يكون خالق الشيء هو مالكة , و بهذا المنطق نفسه جاءت نصوص القرآن؛ فهي قاطعة في أن الله له ملك السماوات والأرض و ما بينهما : "لله ملك السماوات والأرض و ما بينهما "المائدة: 17 , و أنه يملك كل شيء في السماوات و كل شيء في السماوات و كل شيء في الأرض من صغير وكبير سواء كان له قيمة مالية أو لم يكن له قيمة مالية . "لله ملك السماوات والأرض و ما فيهن", و أنه جل شأنه يملك كل هذا وحده دون أن يكون له ملكه شريك من البشر أو غير البشر, "و لم يكن له شريك في الملك"الاسراء:111

و لكن الله جل شأنه استعمر البشر في الأرض : "هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها"هود:61, و جعلهم خلائف فيها على ما سبق بيانه:"هو الذي جعلكم خلائف الأرض"فاطر:39, وسخر لهم كل ما خلق في السماوات و الأرض وسلطهم عليه بقدر ما يستطيعون من استغلاله واستثماره : "ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السماوات و ما في الأرض و أسبع عليكم نعمه ظاهرة و باطنة "لقمان:20."و سخر لكم ما في السماوات و ما في الأرض جميعا منه"الجاثية:13

ولم يسخر الله ملكه لفرد دون فرد , أو لفئة دون فئة , وإنما سخره للبشر جميعا و جعله مشاعا بين عباده الذين استخلفهم في الأرض ليعيشوا فيه و ينتفعوا به , فما يعيش أحد منهم في ملكه , و ما ينتفع إلا بملك الله , وليس أحد مهم أحق بملك الله من غيره , و قد جعل الله منفعة لكل البشر سواء.

ولقد بين الله لعباده الذين استخلفهم في الأرض أنهم حينما يستغلون ما خلق و يستثمرونه و يحصلون على منافعه لا يأتون بشيء من عندهم , وإنما هو رزق من الله يسوقه إليهم , وفضل آخر يغمرهم به : "قل من يرزقكم من السماوات والأرض قل الله"سبأ:24.. "هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء و الأرض"فاطر:3.

وإذا لم يكن ثمة من يرزق غير الله فعلى البشر أن يطلبوا الرزق من الله وحده , وأن يتغوه عنده "فابتغوا عند الله الرزق"العنكبوت:17, فهو الرازق القوي على خلق الرزق وإيصاله للمرزوقين "إن الله هو الرازق ذو القوة المتين"الذاريات:28

فملك الله مسخر لمنفعة البشر , ولهم جميعا أن ينتفعوا به و يستغلوه ويستثمروه و يعملوا فيه , و الله مؤتيهم ثمرات الملك وغلته وأجورهم رزقا من عنده , وما لرزقه من نفاذ , وما جعل الله هذا كله إلا نعمة منه على البشر , ما يعود عليه من نفع , تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

ولقد علمنا فيما سبق أن ما في أيدي البشر من ملك الله وثمراته إنما هو عارية ينتفع بها البشر , وأن القيام على العارية في فقه البشر نيابة وان كانت نيابة العبد عن ربه و المملوك عن ماله , كذلك علمنا أن مركز المستخلفين في الأرض هو مركز الخليفة أو النائب , وأن الخلافة أو النيابة هي عن الله جل شأنه , وهي قائمة في حدود ما سخر الله للبشر من مخلوقاته , و ما سلطهم عليه ملكه , وما خولهم في ذلك كله من الاستغلال و الانتفاع.

و اذا كان الله جل شأنه وهو مالك كل شيء قد سخر ما يملك لينتفع به عامة البشر الذين استخلفهم في الأرض , فإنه جل شأنه هو الذي يمنح كل فرد منهم ما في يده من هذا الملك الواسع " والله يؤتي ملكه من يشاء"البقرة:247

سواء كان ما في يد الفرد قليلا لا يزيد على حاجته أو كثيرا يكفي العشرات والمئات "إن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر"الرعد:26.و ما تغير هذه المنح أبا كانت صفى الممنوحين , فما هم إلا بعض أفراد البشر المستخلفين في الأرض يقومون على ملك الله , و ما هذا الملك إلا عارية في أيديهم , وما مركزهم من هذا الملك إلا مركز النائب أو الخليفة , و ما لهم من سلطان على هذا الملك إلا ما خولهم الله من استغلاله و الانتفاع به.

و لقد فرض الله على البشر أن ينفقوا من ماله الذي استخلفهم فيه و جعلهم قواما عليه " و أنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه"الحديد:7. و لم يترك لهم الخيار في الانفاق , وحب ألا ينفقوا . وما ينفقون إلا مما رزقهم الله وآتاهم إياه "وماذا عليهم لو آمنوا بالله و اليوم الآخر وأنفقوا مما رزقهم الله " النساء:39 .

وما أمر الله البشر أن ينفقوا إلا ذكرهم أنهم ينفقون من ماله الذي آتاهم , ورزقه الذي ساقه إليهم , والنصوص في ذلك كثيرة منها قوله "وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت " المنافقون:10. "يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلال " البقرة:254."قل لعبادي الذين آمنوا يقيمون

رزقناكم "البقرة:172. "كلوا من ثمره إذا أثمر "الأنعام:141. " والله جعل لكم من بيوتكم سكنا وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا تستخفونها يوم ظعنكم و يو اقامتكم ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثانا ومتاعا إلى حين .والله جعل لكم مما خلق ظلالات و جعل لكم من الجبال أكنانا و جعل لكم سراويل تقيكم الحر و سراويل تقيكم بأسكم كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون"النحل:81,80"وأناكم من كل ما سألتموه"إبراهيم:44. " قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق " الأعراف:32

وحق البشر في الانتفاع بمال الله ليس حقا مطلقا , وإنما هو حق مقيد بقيود , فليس لهم أن ينتفعوا بهذا المال كما يشاءون , وإنما لهم أن ينتفعوا به فقط في حدود حاجتهم لهذا المال و بالقدر الذي يكف عنهم الحاجة ويدفعها , بشرط أن يكون ذلك كله في حدود الاعتدال دون سرف أو تقتير , فليس لهم أن يسرفوا في طعامهم وشرايبهم ولباسهم وأمور معيشتهم , وما يجوز لهم أن يفتروا على أنفسهم , وعليهم أن يتوسطوا بين الأمرين وأن لا يتجاوزوا الاعتدال , فقد حرم الله عليهم السرف و بسط اليد في المال كما حرم عليهم التقتير وقبض اليد عن النفس بما هي محتاجة إليه . "كلوا واشربوا من طيبات ما رزقناكم و لا تطغوا فيه" طه:81 . " والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما " الفرقان:67. " ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط " الإسراء:29

وإذا كان للفرد أن يأخذ من مال الله ما يكفي حاجته , فان له أيضا أن يأخذ من هذا المال ما يكفي حاجة أهله الذين تلزمه نفقتهم كالزوجة و الأولاد والأبوين , وله أيضا أن يأخذ بعض مال الله لينفقه في حفظ بقية المال , وفي استغلاله و تثيره , و له أن يفعل ذلك كله في حدود الاعتدال دون سرف أو تقتير . ما يترتب على كون المال لله:

يترتب على أن المال مال الله النتائج الآتية:

1- لا يجوز لأحد كائنا من كان أن يملك المال تملكا نهائيا , ولا يجوز لأحد أن يكون له على المال إلا ملك المنفعة , لأن حقوق الله ثابتة له جل شأنه , وليس لأحد من البشر أن يتصرف فيها أو يتنازل عنها حاكما كان أو محكوما فردا أو جماعة.

2-ان للجماعة بواسطة ممثليها من الحكام وأهل الشورى أن تنظم طريقة الانتفاع بالمال , إذ المال وإن كان لله إلا أنه جعله لمنفعة الجماعة , والقاعدة في الإسلام أن كل ما ينسب من الحقوق لله إنما هو لمنفعة الجماعة وهي التي تشرف عليه دون الأفراد.

3-ان للجماعة بواسطة ممثليها من الحكام وأهل الشورى أن ترفع يد مالك المنفعة عن المال اذا اقتضت ذلك مصلحة عامة , بشرط أن تعوضه عن ملكية المنفعة تعويضا مناسباً, إذ الاسلام لا يجيز العصب ولا يحل أخذ المال بغير طيب نفس صاحبه , كما لا يحل أخذه بالباطل و ذلك قول الله تعالى "ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل "البقرة:188. و قول الرسول صلى الله عليه و سلم "كل المسلم على المسلم حرام , دمه وعرضه وماله" و قوله " إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام."

4-أن الإسلام وإن كان يبيح حرية التملك إلى غير حد , إلا أنه يجيز للجماعة بواسطة ممثليها وباعتبارها القائمة على حقوق اللهو تنظيم الانتفاع بها أن تحدد ما يملكه الشخص من مال معين اذا اقتضت ذلك مصلحة عامة كتحديد الملكية الزراعية بقدر معين أو ملكية أراضي البناء.

ما يترتب على حق البشر في الانتفاع بمال الله : و يترتب على أن للبشر الانتفاع بمال الله و تملك حق الانتفاع نتائج هي:

1-إذا كانت الجماعة قائمة على حق الله وهو ملكية المال , فليس لها أن تمس ملكية الانتفاع ليس لها أن تحرم ملكية الانتفاع التي جعلها الله للأفراد.

2-أن ملكية المنفعة تتصل بالعين كما تتصل بالشخص فيجوز لمالك المنفعة أن ينقلها إلى غيره بالبيع والرهن والوصية وغيرها من التصرفات الشرعية , كما أنها تنتقل عن المالك بوفاته إلى ورثته.

3-أن ملكية المنفعة الدائمة في أصلها بالنسبة للأفراد أي أنها غير مقيدة بمدة معينة , فيصح أن يظل الشيء في حيازة شخص معين ينتفع به حتى يموت ثم يتوارثه عنه أولاده و أولادهم حتى ينقضوا كما هو الحال في الوقف.

4-ان ملكية المنفعة انما جعلت لينتفع بها الفرد بطريق مباشر , ولتنتفع بها الجماعة من طريق غير مباشر , فاذا عطل المنتفع المال فلم ينتفع به فقد عطل انتفاع الجماعة , وكان للجماعة أن ترفع يده عنه بشرط أن تعوضه عنه بما يقابل قيمته.

حقوق الغير في مال الله

وإذا كان لكل فرد حق الانتفاع بما في يده من مال الله في الحدود التي بناها , فان للغير حقوقا فرضها الله في هذا المال و أوجب على من في يده المال أن يقوم بها باعتباره مستخلفا في مال الله , وهذه الحقوق هي:

1-الزكاة : وهي فريضة في مال الله , فعلى كل فرد في يده شيء من مال الله أن يخرجها من هذا المال إذا بلغ قدرا معينا , و يؤديها إلى الحاكم ليردها على ذوي الحاجة طبقا لنصوص القرآن.

والزكاة كالصلاة من مباني الإسلام , يقول الرسول صلى الله عليه و سلم "بني الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله و إقام الصلاة و ايتاء الزكاة و وصوم رمضان و حج البيت لمن استطاع إليه سبيلا. "

وأكثر النصوص تجمع بين الصلاة والزكاة , كقوله تعالى " و أقيموا الصلاة و آتوا الزكاة " البقرة:83. و قوله " فان تابوا و أقاموا الصلاة و آتوا الزكاة فخلوا سبيلهم " التوبة:5 و كقول الرسول صلى الله عليه و سلم " أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا لله و أن محمدا رسول الله و يقيموا الصلاة و يؤتوا الزكاة فإذا فعلوا عصموا مني دماءهم و أموالهم و حسابهم على الله. "

والزكاة فريضة في المال , و لذلك تجب على الرجال والنساء والصغار والكبار , لقوله تعالى " خذ من أموالهم صدقة تطهرهم و تزكيتهم بها" التوبة 103 . و مقدارها يختلف باختلاف المال , فقد تصل إلى عشر المال كما في المستنبت المقنات , وقد تصل إلى 2.5 % من المال كما في الحلبي و النقود , وقد تكون أقل من ذلك كما في زكاة الأنعام.

وتجب الزكاة في كل مال حال عليه الحول , أي مضى عليه عام في يد المستخلف عليه , لقول رسول الله صلى الله عليه و سلم " لا زكاة في مال حتى يحول عليه الحول. "

2-الإنفاق :وإنفاق المال يعتبر في الإسلام صفة من الصفات الدالة على الإسلام و على الايمان وعلى طاعة الله والقيام بأمره , وحينما وصف الله المتقين وصفهم بأنهم : "الذين يؤمنون بالغيب و يقيمون الصلاة و مما رزقناهم ينفقون" البقرة:3, فسوى جل شأنه بين الايمان بالغيب واقامة الصلاة والإنفاق وجعلها جميعا علامة على التقوى.

ووصف الله المؤمنين بأنهم هم الذين يخشون ربهم فإذا ذكر وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا على إيمانهم , وأنهم يعملون ويحسنون عملهم ما استطاعوا ثم يتوكلون بعد ذلك على ربهم , وأنهم الذين يقيمون الصلاة و ينفقون مما رزقهم الله , وأكد الله لنا أن هذه الأوصاف هي أوصاف المؤمن الحقيقي , فالإنفاق إذن صفة من صفات المؤمن , وعلامة على الإيمان الحق "إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون . الذين يقيمون الصلاة و مما رزقناهم ينفقون . أولئك هم المؤمنون حقا" الأنفال 2.- 4

بل إن الإنفاق يعتبر في الإسلام أصلا من أصول البر أي الخير , فلا يتم الخير إلا بالإنفاق , لقوله تعالى :ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبين , و أتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب , واقام الصلاة و أتى الزكاة , والموفون بعهدهم إذا عاهدوا , والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس , أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون " البقرة:177.

ويلاحظ على نص الآية أولا: جعل الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسوله واليوم الآخر أصلا من أصول البر أي الخير , وجعل الأعمال الصالحة المترتبة على الايمان و التي هي نتيجة له أصلا ثانيا للبر أي الخير . فالخير هو ما يهدف إليه الاسلام , والأصول التي يقوم عليها هي الايمان المجرد ثم إتيان ما يقتضيه الإيمان من الأعمال . ومثل ذلك قوله تعالى " ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون " آل عمران:104, فالغاية هي الدعوة إلى الخير والوسائل هي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر , ويدخل تحتها كل

ما جاء به الإسلام , و من ذلك قوله تعالى: "لكل جعلنا منكم شرعة و منهاجا و لو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات " المائدة:48, فغاية الأديان ليست إلا الخير , وما تدعو الناس إلا إلى الاستباق في عمل الخير , و وسائلها إلى ذلك هي الإيمان بالله , و العمل طبقا لما أمر الله.

ويلاحظ على نص الآية ثانيا: أنه جعل الانفاق على رأس الأعمال الصالحة التي تؤدي إلى الخير وهو غاية الإسلام وهدفه , كذلك قدم النص الانفاق على الصلاة و الزكاة , و يكفي هذا دليلا على مكانة الإنفاق في الإسلام , و دليلا على أن الإسلام لا يتحقق في مسلم يمتنع عن الانفاق.

وقد بين لنا الله جل شأنه أننا لن نصل إلى ما يهدف إليه الإسلام وهو الخير حتى ننفق من أحب أموالنا و أكرمها علينا , فقال جل شأنه : "لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون" آل عمران :92, و من أنفق مما يحب هان عليه ما دونه.

ويتبين مما سبق غاية الإسلام هي الخير , و أن وسائله للخير هي الإيمان و الأعمال الصالحة , و أن الانفاق هو أول الأعمال الصالحة , و أن الامتناع عن الانفاق يحول دون الوصول إلى غاية الإسلام وهي الخير , و إذا كان الإنفاق وسيلة من وسائل الإسلام إلى الخير و نتيجة من نتائج الإيمان بالله , فإن المسلم الذي يمتنع عن الإنفاق يشهد على نفسه بأنه يعصي الله , و انه يعطل الإسلام , و أنه لم يؤمن بالله حق الإيمان.

أنواع الانفاق : و الإنفاق نوعان : إنفاق الفريضة , و إنفاق التطوع , و إنفاق الفريضة نوعان : إنفاق في سبيل الله , و إنفاق على ذوي الحاجة.

وإنفاق الفريضة هو ما يجب أنفاقه من المال , و ما للحاكم أن يأخذه ليصرفه في مصارفه , رضي ذلك المستخلف على المال أم كرهه , أما إنفاق التطوع فهو ما ترك للمستخلف أن ينفقه دون أن يجبره على إنفاقه أحد.

من كتاب "الإسلام و أوضاعنا السياسية" للقاضي الشهيد الدكتور عبد القادر عوده رحمه الله.

